إلى دمشق أنصت إلى كل ما قيل فى هذا الشأن وقيدت الكثير منه : ومع أن الكثيرين يلقون السبب على الفرنسيين فإن هؤلاء يشيرون إلى أعوان هاشم بك وأنصاره ورجال السياسة السوريين ويعدونهم المسئولين عن تردده أملاً فاعتبرتها المفاجأة الثانية .

أحمد رمزى

الاتحاد الإســـــلامى

للدكتور السيد محمد يوسف الهندى

قد كنت ولا أزال من أشد المتحمسين لفكرة إنشاء اتحاد إسلامى عالمى يضم الشعوب المتجانسة والدول المتجاورة الممتدة من الباكستان شرقاً إلى تركيا ومصر غرباً ، وربما يتسع نطاقه فيما بعد فى الناحيتين الشرقية والغربية إلى أندونيسيا والمغرب الأقصى . وأزعم بالقول بأن المسلم الهندى أعمق قلبه إيماناً وإخلاصاً لهذه الفكرة التى ازداد طموحه إليها بعد أن نجح فى خلق أداة قوية فعالة ، ألا وهى دولة الباكستان المساهمة فى إبرازها إلى حيز الوجود .

ولكن نظرة المسلم الهندى إلى العالم الإسلامى إنما كانت إلى وقت غير بعيد نظرة عاطفية خيالية هى أبعد شىء عن الحقيقة والواقع؛ فإنه كلما حول وجهه إلى تلك الرقعة الشاسعة التى يقطنها المسلمون من العرب والعجم والترك رأى دولا قيل إنها مستقلة ، وتيجانا ربما ادعى أنها ترمز إلى مجد الإسلام الغابر ، وشعوبا مسلمة تؤلف الأغلبية الساحقة فى حدود بلادها — الصفة التى كانت تنقص المئة مليون من المسلمين فى الهند للوحدة والتى كان انعدامها مصدر جميع آلامهم وأخطارهم فى المستقبل . فلم يكن المسلم الهندى ليتصور أن يكون هناك أى مانع عند تلك الشعوب المتماسكة والدول المستقلة من الاتجاه إلى التضامن والاتحاد على أساس الدين الذى كان ولا يزال يعتقد — حسب فهمه هو — أنه ملك وسياسة قبل أن يكون صلاة ودعاء . ومما ساعده على هذا الظن — الخاطئ مع الأسف — تلك الألقاب الفخمة المشعرة بحماية الدين ونصرة الإسلام والمسلمين التى يتحلى بها بعض الأمراء والأعيان فى الأقطار المختلفة (كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد) ومظاهر أخرى مثل صدور الفتاوى من مشيخة الأزهر « إلى العالم الإسلامى كله » تلك الفتاوى التى عرفت الآن أنها لا تصدر عن شعور داخلى حر بخير « العالم الإسلامى كله » ولا عن دراسة واعية للأحوال والظروف الخاصة بالمسلمين فى الأقطار المختلفة . بل إنها ربما تستصدر لمصلحة عاجلة . ويا حبذا لو أن كبار العلماء تنازلوا عن سلطتهم المنتحلة هذه كما فعلت تركيا حينما ألغت الخلافة بعد ما رأت عجزها عن إسداء أى عون مادى أو أدبى إلى ما يسمى بالعالم الإسلامى .

كان من الطبيعى أن تتغير نظرة المسلم الهندى هذه فى الأيام الأخيرة على أثر التقارب عن طريق التمثيل الدبلوماسى وتبادل الزيارات . ولعله قد عرف أن المانع الحقيقى من التقدم نحو الاتحاد ليس عاملا خارجيا أجنبياً بل هو داخل نفوس إخوانه المسلمين الذين أصبحوا غير مستعدين لقبول هذه الفكرة . وقد اقتنعت أنا شخصيا بصدق ما صرح به البانديت جواهر لال نهرو ، رئيس وزراء الهند ، عقب زيارته الأخيرة للقاهرة من أن أى اتجاه إلى التكتل على أساس الدين فى الشرق الأوسط أمر مستحيل ، فاستعنت باليأس على التغلب على ما غمرنى من القلق وبدأت أغتبط بواقعية رجال الحكومة الباكستانية حينما لا حظت فتوراً فى تصريحاتهم إزاء أى حلف رسمى ، وظننت أن الفكرة قد وضعت على الرف أو كما يقولون فى الثلاجة إلى أن تنبعث من داخل قلوب المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية على السواء حتى يجىء الاتحاد نتيجة لشعور عام صادق متدفق قوى .

ولكن ظهرت فى الأسابيع الأخيرة بوادر تنذر بأن يتم على أيد أجنبية خفية ما لم يكن ليتحقق بالرغبة الذاتية فأثارت فى نفسى خواطر رأيت أن أدعها حتى يتبين كل منا حقيقة فكرة الاتحاد الإسلامى من أى صورة ممسوخة له ربما تساور بعض الأذهان فى الوقت الحاضر .

إن فكرة الاتحاد الإسلامى فكرة دينية بحت ترتكز من حيث المبدأ على الشعور بالأخوة وواجب المساهمة فى الآلام نحو كل من يشارك الآمال وأهداف الحياة . ومن الواضح أن هذا الشعور داخلى شخصى اختيارى محض ولا يحتاج وجوده إلى أية مبررات من المصالح السياسية أو الاقتصادية مع أن تلك الفوائد لا بد وأن

تنتج منه وترافقه إذا أحكم تدبير الوسائل الفنية اللازمة لها . فالاتحاد الإسلامي بطبيعته يأبى إلا أن يكون اتحاداً بين الشعوب الإسلامية بعد أن تتجرد من الإيمان بالفكرة الدينية في تنظيم حياتها الداخلية وتدعيم علاقاتها الخارجية والدولية .

فما حال الشعوب الإسلامية في الآونة الحاضرة ؟ ليس الكلام عن تركيا بصعب ؛ فإنها جريئة صريحة تحدث ما تحدث عن علم . أما الممالك العربية فتكاد تجد لها ممثلين ومساهمين في جميع المؤتمرات مهما اختلفت أنواعها وتضاربت أهدافها ، وقلما تلاقي خطة واضحة مرسومة بعيدة المدى في تصريحاتها أو تصرفاتها . وقد خيل إلى فيما يتعلق بالموضوع الذي نحن فيه أنها حريصة على الاحتفاظ بالشرف الذي كان لها بحق من حمل لواء الإسلام في الماضي ولكنها في الوقت نفسه تتوق وتجهد وتتكلف ما يسمونه « مسايرة الغرب » باستحسان كل ما جد من النظريات والاتجاهات السياسية كما أن النساء المتجملات يلهجن بكل ما تبتكره باريس من الأزياء — حتى الذيول الطويلة !! — كل صيف وشتاء ؛ أو لا ترى أنها ثارت مطالبة بالاستقلال والوحدة فكان من حظها الاستعمار والفرقة . ولا ضير في ذلك فإن الأمم كالأفراد كثيراً ما تخطىء حسابها وتفشل في خططها ولكنها سرعان ما رضيت بالفرقة وبدأت تعتز وتباهي بالفوارق الوطنية فيما بينها كالأصل الفينيقي والحضارة البابلية والمدنية الفرعونية وما إلى ذلك مما نبشه الباحثون المستشرقون لتلهيتها « عن كل مكرمة » واستمر الحال كذلك طيلة الفترة ما بين الحربين إلى أن تغيرت الأوضاع الدولية وتدهورت الأحوال رأساً على عقب ، فهتف هاتف من الغرب بضرورة الاتحاد فارتجلوا اجتماعاً بين الملوك واجتماعاً بين الحكومات على ميثاق الجامعة العربية. ومنذ ذلك الحين و « العروبة » يخفق لها قلب كل عربي . وكلمة العروبة أو القومية العربية لم تكن واضحة المعالم أبداً وهذه هي نقطة الضعف لاشك فيه ، فإن زعماء الثورة الأولين لم يعنوا حينما نطقوا بها شيئاً يعارض الوحدة الإسلامية . وليس أدل على ذلك من أن طوائف معينة معروفة باتجاهها الاستعمار الأجنبي اعترضت سبيلها ولم تزل تقاومها حتى أرغمت الأكثرية العظمى على تلطيف ، بل تغيير مدلولها تغييراً جوهرياً بحيث أصبحت تعبر عن أهواء الذين يعادون الفكرة الدينية الإسلامية لا لشيء إلا لولائهم لدينهم ؛ كفى بذلك شاهداً ما جاء في كتاب نبيه أمين فارس المسمى بـ « العرب الأحياء » والمنشورات الأخرى الحديثة عن مقومات العروبة التي لا بأس بأن يدخل فيها كل شيء من عصور ما قبل التاريخ إلى العهد الحاضر ما عدا الدين الذي يراد إبعاده عن حياة الغالبية العظمى من العرب . وأخيراً تصادف أن فقدت هؤلاء الطوائف ربيبة الاستعمار عمادها أو القط الذي كانت هي بمثابة المخلب له وذلك في وقت نجحت فيه فكرة فصل الدين عن السياسة بين المسلمين نتيجة لضعفهم وخيبة آمالهم ، فلبست الحال الجديدة لباسها — لباس الوطنية الصادقة (ولكن مع ضمان وضع خاص فليتأمل !) — حتى جاء الاعتراف باستقلال لبنان الذي لم يرض به كثير من الوطنيين المخلصين إلى آخر لحظة ، رمزاً للتبرؤ من اللون الأجنبي من جهة والفكرة الدينية من جهة أخرى . وبعد بضع سنوات أصبح هذا الوضع ، بفضل الجامعة العربية ، من المبادىء الأولية التي ربما ينطوي الإسهاب في الكلام عنها على مجازفة خطرة .

قامت الجامعة العربية فابتهج بها المسلم الهندي كما أنه ابتهج بميثاق سعد آباد أو أي مظهر آخر للتقارب بين المسلمين حتى زواج الأميرة فوزية من جلالة شاه إيران ، وربما عبر عن ابتهاجه بما ينبىء عن إعتقاده بأن الكتلة العربية أشد ارتباطاً بالمسلمين في الأقطار الأخرى من شقيقتها و (بترونها) الكتلة اللاتينية فاضطرت الجامعة مرات عديدة لإنقاذ سمعتها كهيئة إقليمية محضة ونفت اهتمامها بالدين وأهل الدين حتى لا تفسد عليه صفقة الأصوات . وهكذا مضت الجامعة في تنسيق السياسة الخارجية للدول العربية تتوخى كسب الأصوات وتبادل « المواقف » — الذي يستلزم في بعض الأحيان التهاون في الحق — تحاول تهدئة فرنسا في دورة للأمم المتحدة ومساومة أسبانيا في دورة أخرى حتى أثبتت حوادث فلسطين أنها لم تكن خلقت لمثل هذا العمل ؛ وعلى كل حال فإن الجامعة العربية ، مع أنها لم تكن تصلح من حيث تراكيبها لمقاومة الاستعمار إلا إذا كان من نوع معين ، أيقظت شعوراً قوياً بين الشعوب العربية نحو التآلف والتآزر حتى أن هذا الشعور المتدفق ربما سبب متاعب للحكومات المعطلة الغير المعتنة المتلكئة في الأمور ، ولكن يجب التصريح بأن هذا الشعور إنما كان مبنياً على أساس العروبة وتناسي الدين أعني الإسلام .

(البقية في العدد القادم)

السيد محمد يوسف